فنّ المدجّنين

بقلم الدكتور
عبد العزيز الاهواني

كنيسة من طراز المدجنين

حين يقدم الزائر الاوروبي من الشمال إلى اسبانيا ليشاهد معالمها وآثارها ، يلقى آيات فنية من البناء لا تكاد تخلو منها مدينة او قرية . ويحسّ الزائر الاوروبي ان هذه الآثار المعمارية، بين كنائس وقصور وحصون وأديرة، حلقات من سلسلة طويلة في كل بلد اوروبي اطراف منها . فهذا الطراز الروماني او القوطي او طراز النهضة الذي يقوم في ليون وبرغس وسلمنكه معروف في بلاده وان اكتسب مسحة محلية خفيفة . وكذلك الامر مع الزائر المشرقي الذي يدخل اسباتيا ، فانه يلقى في جنوب البلاد ووسطها مساجد وقصوراً وقلاعاً وقصبات في قرطبة وطليطلة وغرناطة والمرية لها نظائر في الشام ومصر والمغرب الاسلامي . ولكن الزائرَين الغربي والشرقي يقفان خلال ذلك امام طراز من البناء لا نظير له في بلديهما جميعاً . فن من البناء انفردت به اسبانيا والبرتغال اطلق عليه اسم خاص : هو الفن المدجّني (Mudéjar) . فن لا هو بالغربي ولا بالشرقي . تتضح الروح الشرقية في بعضه حتى تطغى على الروح الغربية فلا يرى الزائر ملامح الشرق الا في صعوبة وعسر .

وقد يختلف الحكم على قيمة هذا الفن بين الفنون . ولكن الشعور بالغرابة أو الغربة شعور مشترك عند الشرقي والغربي حين ينظران الى هذه الآثار ويتأملان تفاصيلها ، وربما اثار هذا الشعور حرجاً في الصدر وحيرة أمام الزائر الحديث . ومهما يكن من شيء فهذه الغرابة او الغربة هي التي خلقت هذا الفن وهي الاصل في وجوده ، وبنفس هذا الاحساس شعر صانعوه يوم ان كانوا يضعون اسسه ويقيمون أركانه ويزخرفون بالآجر الأحمر أبراجه وجوانبه خلال القرن الثالث عشر الميلادي وما بعده .

وقبل ان اتحدث عن الظرف او الوضع التاريخي الذي اقام هذا اذكر انه ينطوي على مشكلة نحن — ابناء الشرق العربي — نجتازها اليوم . ولا اكاد اذكر المدجنين والدور الفني الذي قاموا به إلا ذكرت كثيراً من الفنانين العرب المعاصرين والدور الذي يقومون به . وكلما اردت ان ابعد عن ذهني هذا الخاطر ازداد إلحاحاً . أهو التاريخ يعيد نفسه ؟ لا أدري، ولكنني لا احب ان نكون من المدجنين .

انتظمت شبه جزيرة ايبريا حركة مد وجزر هائلة لا نظير لها في التاريخ . بدأت موجة المد في القرن الثامن الميلادي وانحسرت موجة الجزر في آخر القرن الخامس عشر الميلادي . ووراء حركة المد طفا المستعربون (Mozarabes) ، وهم مسيحيون عاشوا تحت ظل الدولة الاسلامية . ثم وراء حركة الجزر طفا المدجنون ، وهم المسلمون الذين عاشوا تحت ظل الدولة المسيحية . وموضوعنا هو المدجنون . ومادة (دجن) تعبر أصدق تعبير عن حال اصحابنا ونفسياتهم . دجن بمعنى (سكن) وبمعنى (استؤنس) . كانت المدن الاسلامية والقرى تقاوم التقدم المسيحي المندفع من الشمال مقاومة باسلة مريرة . فان عجزت عن المقاومة هاجر عنها اهلها وانتقلوا الى خط دفاعي آخر إلى الجنوب من خطهم الاول — ولكن فريقاً كبيراً من المسلمين دجن في المدن المفتوحة ولم يهاجر الى صفوف المجاهدين في الجنوب . أخلدوا الى الارض وتمسكوا بحجة واهية هي معاهدة او وعد من الملك القشتالي او الأرجوني يذكر فيه انه سيترك لهم الحرية الدينية والمدنية . وصار في اكثر المدن المفتوحة جماعات منعزلة مستكينة تقيم

في حي خاص بها (Aljama) ، هم غرباء في بلد كانوا يعتبرونه وطنهم من قبل ، ولا تكاد تربط جماعاتهم في البلاد المختلفة صلة ، وليس لهم قائد او زعيم خلافاً لنظرائهم المستعربين من قبل . وكانت علاقة المدجنين بأبناء دينهم في الجنوب شبه معدومة ، وإنما كانت تنقل اليهم اتهامات بشعة منهم ، ومع ذلك فجيرانهم المسيحيون يرتابون بهم ويهمون بين الحين والحين بطردهم وإبادتهم ، وبين ذلك اضطهاد طويل ونقض للعهود .

وكأن المدجنين أرادوا ان يفروا من انفسهم ومن حرج ضمائرهم فانصرفوا الى العمل اليدوي والفني في جد واجتهاد ، وكانوا من قبل اهل صنعة واتقان للحرف ، فعملوا قصوراً وحصوناً واسواراً وشيدوا كنائس وأديرة . أقلية شرقية مسلمة منعزلة تبني لأكثرية غربية مسيحية منتصرة . ومن هنا كان فن المدجنين ، فن الغرباء في وطنهم الذي يحاولون الملاءمة بين اصالة فنية ورثوها وبين ذوق آخر غربي صنعه الفن الروماني والقوطي عند جيرانهم وسادتهم وعندهم هم احياناً .

وفي هذا الفن اجزاء جميلة رائعة وفيه قطع رصينة وخفيفة توحي ، ولكنه ظل وسيظل فناً محلياً لا يستطيع ان يخرج من شبه جزيرة ايبيريا . وظل وسيظل فناً يثير الشعور بالغرابة والغربة . وربما قسونا فقلنا سيظل فناً (ملفقاً) تختلط فيه وتضطرب ملامح الشرق والغرب .

لا أدري أصادق انا ام متوهم حين اقول انني كلما سمعت الموسيقى العربية الحديثة تذكرت فن المدجنين ، وتخيلت كنيسة في سرقسطة بناها المسلمون لجيرانهم . واخشى ان اقول ان هذا الاحساس يطفو احياناً حين اقرأ بعض ما تكتبه اقلام العرب المحدثين .

القاهرة — عبد العزيز الاهواني

صدر حديثاً

فلسفة لايبنتز

مع تعريب « المونادولوجيا »

بقلم الدكتور جورج طعمه

اول كتاب بالعربية في هذا الفيلسوف الألماني احد مؤسسي الفلسفة الحديثة يتضمن شرحاً لمذهبه مع اول ترجمة عربية لاحد كتبه الرئيسية.

صدر حديثاً

في سلسلة

روائع المسرح العالمي

العادلون

ع

البير كامو

مسرحية في خمسة فصول

تاليف

البير كامو

نقلها عن الفرنسية

اميل شوري

ذروة مسرحيات البير كامو ، وهي تصور قلق الاشتراكي الثوري الذي يرفض أنصاف الحلول ومساومات السياسة ، وينزع الى الحلول الحاسمة التي لا يحققها إلا حب المبدأ .

هي قصتك أيها العربي .. قصة نضالك ضد الظلم ، ونشدانك العدل والحرية ، وتشبثك بالاشتراكية ، وحبك لكافة المواطنين الذين يسعون من حولك .

هي قصة الحب الانساني في أروع مثاليته .. الحب الذي لا يستهدف النتائج .. وانما يسير في اتجاه واحد من غير ما أمل في لقاء .. قصة نضالك ضد حياتك الخاصة التي وهبتها للمجموع ، وفديتها لمصلحة العدد الاكبر من البشر .

روائع المسرح العالمي